

سلام عادل .. الدال والمدلول وما يمكن وما يزول

الترهل في جسد الحزب الشيوعي منعه من قرارات حاسمة ضد عبد الكريم قاسم

القسم الثالث

عبد الحسين شعبان

بيروت

مدخل شخصي

حين أكتب عن سلام عادل فتمّة اعتبارات شخصية وعائلية، إضافة إلى علاقات شيوعية وسياسية، فكلانا ينتمي إلى النجف المدينة المطفاء والمركز الحضاري الثقافي المنفتح للعلم والأدب والفقه والدين والسياسة والتنوّع العرقي واللغوي على الرغم من طابعها العروبي وحفاظها على لغتها العربية السليمة.

وكان عمّي ضياء شعبان صديقاً لسلام عادل ويفتخر بصداقته، خصوصاً وأنه يعد نفسه من "انصار السلام" لأنه وقّع على نداء ستوكهولم الشهير الذي استهله عالم الفيزياء الفرنسي فريدريك جوليو كوري في العام 1950 والذي وقّع عليه ما يزيد عن 273 مليون إنسان، والذي دعا إلى حظر الأسلحة الذرية. وبعد ثورة 14 تموز (يوليو) العام 1958 وظهور سلام عادل إلى العلن، كان عمّي ضياء غائباً ما يحاول استنارة حفيظتنا بقوله: "إنني صديق سكرتير حزبكم" وأحياناً يمازحنا بقوله أنه سيسكننا عمّي شوقي وأنا إلى "أبو إيمان" إذا تأخرنا في تلبية طلباته أو قصرنا في تادية واجباتنا المدرسية.

وتتجاوز اللحظة الاتية ذات الاعتبار الأخلاقي العام والتي تتعلق بقضية السلام إلى طرح حلول ذات أفق مستقبلي، وقد حاول سلام عادل تعديل ذلك بالتحقيق الذي أسهم في إعداده جمال الحسيني بتوجيه منه وتحت إشرافه حول القضية الكردية، ولكن بعد فوات الأوان.

روح الملل والروتينية حد القنوط في صفوفه، وكان هذا بعد ذاته بداية "هزيمة" قبل انقلاب 8 شباط (فبراير) الفاشي.

كان الحزب يتصرف وفقاً لرأي الفعل وينظر القدر "العاشم" (المؤامرة المنتظرة لبعثية لها) وتدرجياً لم يكن لنا حلفاء بعثيون، أما ما أطلق عليه "الضلال الجماهيري" فقد انحسر بالترنّج حيث ضعفت مبادرانا، روح الملل والروتينية حد القنوط في صفوفه، وكان هذا بعد ذاته بداية "هزيمة" قبل انقلاب 8 شباط (فبراير) الفاشي.



عبد الحسين شعبان مع ماجد عبد الرضا واسماعيل القادري

كان على سلام عادل معالجة قضية "شرعية القيادة" ليس بالإنجاز فحسب، بل في الأطر التي لا يمكن إغفالها من

الترويج لأهم شعارات الحزب من صنع ومشاهدة سلام عادل بقيادة الحزب، بحيث أصبحت قوة مادية في المصارف وهي الخرج من خلف بغداد الاستعماري والتحلل من الاتفاقيات والمعاهدات الاستراتيجية المذلة والانحساب من نظام الكتلة الاسترلينية والدعوة للإصلاح الزراعي والتسوية لاستعادة حقوقنا من شركات النفط الاحتكارية والانعطاف نحو المحسكر الاشتراكي والطالبة بل بالحريات وإبراز أهمية حقوق المرأة ومسأواتها مع الرجل، لا سيما في العام الأول من عمر الثورة، ولهذا لا يمكن إغفال سلام عادل إلى مجرد قيامه ببعض المهام الحزبية أو إشرافه على الجريدة كما ورد في تعليق لكادر حزبي.

كلمات ومواقف

لكن الخلافات التي دبت في الحزب الشيوعي، إضافة إلى نبح الفروع ومحاولاة الإفراط بالشارع وتمهيش دور الآخرين دفعته قيادته إلى ارتكاب أخطاء عديدة اعترف بها على نحو شجاع تقريراً العام 1959 (اجتماع ل.م) وإن كان الأمر يحتاج إلى طائفة من التدابير بل يتم التوصل إليها أو لم تتخذ الإجراءات المناسبة التي تقتضيها، وهو ما أضعف محتوى سياسة الحزب وجودها، خصوصاً بعض الأطروحات العكس التي طبعته السياسة العامة، فما معنى تضامن - كفاح ثم: كفاح، تضامن، كفاح، الذي يتم شرحه بتأييد الخطوات الإيجابية في سياسة عبد الكريم قاسم ونقد الخطوات السلبية، وتأييد السياسة الخارجية ذات الشحنات الإيجابية ونقد السياسة الداخلية ذات التوجهات السلبية. كما أن شعار "السلام في كرسيتان" لم يكن شعاراً يليق بالحزب الشيوعي فقد كان يمكن وضع شعارات أكثر تعبيراً عن الشعب الكردي من جهة على سبيل الحكمة الذاتي، وخصوصاً بربطه بالديمقراطية لمعالجة مبدئية

تبار أقرب إلى قاسم مثله عامر عبدالله وما سمي كتلة الأربعة لاحقاً التي ضمت زكي خيري وبهاء الدين نوري ومحمد حسين أبو العيس الذي لم يكن فكراً يستوجب مرحلة ما بعد الثورة، لكن جميع القوى لم تكن منسجمة مع الرفاق كما يقول أرا معه، لكنه كان قد أبدى تحفظات وواعية لما أقدمت عليه.

وإسراء أخرى أقول: إنه بقدر إخلاص قيادة الحزب الشيوعي السائد، فسارتك العديد من الأخطاء والممارسات السلبية التي حدثت في الموصل وكركوك، وبقدر مسؤولية القوى الأخرى، كانت كبيرة جداً، إلا أنه لا ينبغي التقليل من المسؤولة التي تقع على الحكم والجماعات القريبة منه، لا سيما الحزب الشيوعي الذي كان عليه أن لا يلعب دور الشرطي لحكومة بعثية أن تسأله على ارتكابه حتى وإن سكتت عنهما، ناهيك عن أن ارتكاب مدان الأساس ومرفوض، وإعتبارات سياسية وإنسانية وأخلاقية، وتحت أية مبررات، أوردت أمثلة كثيرة على ذلك في كتابي عن عامر عبدالله "الناز ومرارة الأمل"، لا سيما بعض الحوادث التي يمكن الرجوع إليها كانت قيادة الحزب الشيوعي قسيلة الثورة قد تفرست في النضال والتضحيات في ظروف العمل السري، وحققت إنجازات مهمة منها توحيد الحزب العام 1956 وقيادة انتفاضة العام ذاته تضامناً مع الشقيقة مصر ضد العدوان الثلاثي، ثم تشكيل جبهة الاتحاد الوطني التي كان للحزب دوراً فعالاً فيها العام 1957، كما لعبوا دوراً رئيسياً في هذه الأجيال لع ب قاسم لعينه، فبعد تقريبات الحزب الشيوعي واستناده "ماشنة نار" للقضاء على خصومه الحزب الديمقراطي الكرسستاني (البارتي)، بعد رفض أحزاب الجبهة قبوله عضواً فيها بسبب مواقف بعضهم من القضية الكردية. لكن العمل العلني فاجأ قيادة سلام عادل، التي اعتادت على العمل السري، ولم يكن لديها خبرة في شؤون الدولة والإدارة، ناهيك عن الأعداء الغفيرة التي تحزبت في صفوف الحزب، وأحدثت نوعاً من الأرباك لدى القيادة، التي تصرفت بطريقة غير موحدة، وبرنامج غير موحد أيضاً، بل يمكن القول دون برنامج واضح ومحدد، وتقارفت في اتجاهات شتى، فمن جهة هناك قوى جبهة الاتحاد الوطني، وبالرغم من تفوقه الجغرافي من تفوقه الشيوعي في العراق، إلا أن الشيوعيين بعد اعتماد الصراع مع القوميين والعينين، لم يكن أحد يعقله في الوزارة، بما فيه إبراهيم كبة أو غيره في حين كان حسين جميل وهديب الحاج حمود يمثلان الحزب الوطني الديمقراطي وقيل ذلك محمد حديد، وكان محمد صديق ششل يمثل حزب الاستقلال وكان فؤاد الكرابي يمثل حزب البعث، أما الحزب الشيوعي فقد استبعد في بداية الأمر، ثم ضمّ لاحقاً.

جدير بالذكر أن مسألة الوحدة الفورية أم الاتحاد الفدرالي كانت قد واجهت ثورة 14 تموز ونالت من الجدل والصراع ما لم تنله مسألة أخرى، وقد نشبت كل فريق بوجهة نظره وأحياناً ذهب بعيداً ليكونوا بعينين عن موضوع الوحدة أو الاتحاده كما تبين

وفاقمه راحوا يبالغون أحياناً في عرض مساوئ الوحدة، خصوصاً بتجسيرة الوحدة المصرية - السورية والموقف الرسمي من الحزب الشيوعي السوري الأمر الذي ساهم في التسايع مع الأطراف الوطنية العراقية، والمفوضين أنفسهم حين تشبثوا بالوحدة الفورية بالغا فيها لدرجة انزوا كل شكل من أشكال الاقتصاد سواها، والهدف هو إخراج الشيوعيين وإظهارهم بظهور اعداء الوحدة، علماً بأن الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان كان قد طرح موضوع الوحدة والاتحاد منذ العام 1931 ونادى مع الحزب الشيوعي الفلسطيني باتحاد عربي وكان يدعو إلى وحدة طوعية وفدرالية تحفظ الاستقلال التام للدولة الاستعمر.

وكان البيان الذي وقّعه فهد في الناصرية العام 1932 قد دعا إلى "اتحاد الجمهوريات العمالية والفلاحية في البلدان العربية" وفي العام 1935 اتخذ كونفرانس الأحزاب الشيوعية العربية في المشرق قراراً في الدعوة للاتحاد العربي، ولهذا أقول بأن حماسة الشيوعيين للوحدة والاتحاد ليست أقل من القوى القومية، لكنهم كانوا يراعون الفروق في تطور البلدان العربية والنظمة الحكم والتسرف الداخلي وغير ذلك، وهو ما كان قد تبنّاه الكونفرنس الثاني الذي جرت الإشارة إليه العام 1956 حين رفع شعار الوحدة العربية معتبراً الطريق إليها يقوم بزوال الاستعمار وتحقيق الإصلاحات الديمقراطية.

(انظر: عزيز سباهي - عقود من تاريخ الحزب الشيوعي العراقي، ثلاثة أجزاء ج 1، دمشق، ٢٠٠٢، ص ٣٣٢ وما بعد. انظر كذلك: الحزب الشيوعي العراقي - حقلنا السياسية في سبيل التحرير الوطني والقومي، ١٩٦٥، ص ٥٣).

تناقضات وأخطأ

وكانت مواقف الحزب الشيوعي متناقضة أحياناً، فبدلاً من التفكير بالاستيلاء على السلطة استولى عليها، وهو ما يذكره عدد من قولهم استقروا بالشارع واصبحوا ينظرون للآخرين من خلال مواقفهم بظهور أحياناً ويعسف أحياناً أخرى، لا سيما باختلال المعادلة بين قمة السلطة وقاعدتها، فعلى الرغم من تمثيل جميع القوى الوطنية بحكومة الجمهورية الأولى، إلا أن الحزب الشيوعي استثنى منها، وهو الأطول عمراً، والأكثر تضحية والأصلب عوداً في محاربة النظام الملكي، لكن حصته من مناصب ما بعد الثورة كانت محدودة في السلطة، وإلى حين استبصار نزيهة الديلمي بعد استخدام الصراع مع القوميين والعينين، لم يكن أحد يعقله في الوزارة، بما فيه إبراهيم كبة أو غيره في حين كان حسين جميل وهديب الحاج حمود يمثلان الحزب الوطني الديمقراطي وقيل ذلك محمد حديد، وكان محمد صديق ششل يمثل حزب الاستقلال وكان فؤاد الكرابي يمثل حزب البعث، أما الحزب الشيوعي فقد استبعد في بداية الأمر، ثم ضمّ لاحقاً.

جدير بالذكر أن مسألة الوحدة الفورية أم الاتحاد الفدرالي كانت قد واجهت ثورة 14 تموز ونالت من الجدل والصراع ما لم تنله مسألة أخرى، وقد نشبت كل فريق بوجهة نظره وأحياناً ذهب بعيداً ليكونوا بعينين عن موضوع الوحدة أو الاتحاده كما تبين



سلام عادل